قصة قصيرة

أغنية لوجه أمي الغائب

علي عبيد الساعي

قالت له المضيفة وهي تمر بين المقاعد :

ـ اربط الحزام من فضلك .

ثم غابت مسرعة بين صفّي المقاعد الممتدة عبر الطائرة .

* * *

كان آخر عهده بوجه امه قبل عشر سنوات ، ورغم ان هذه المدة ليست طويلة بالمعنى الصحيح الا انه كان عاجزاً تماماً عن تذكر قسمات وجهها بكل ما فيه من تفاصيل ، كل الذي يذكره من وجهها بشكل دقيق : الوشم الذي كان ينساب من الشفة السفلى باتجاه الذقن ، والعينين الواسعتين ، هذا ما رسخ بذاكرته ، اما بقية التفاصيل فامر استحضارها اصبح صعباً .

ذات يوم شكا الصديقة « اكرم » الذي يعمل مدرساً ، ان ذاكرته تخونه كلما حاول ان يتذكر تفاصيل وجه امه ، وانه في كل مرة يحاول ذلك يشعر وكأن غلالة رقيقة تحول بينه وبين وجهها الرائع فيصاب بما يشبه الدوار ، لعدم قدرته على التركيز بما يجعله قادراً على تذكر تفاصيل وتقاطيع وجهها. قال له اكرم :

ـ كل واحد منا يعجز عن تذكر تفاصيل وجوه أحبته بشكل دقيق ، وتكتفي ذاكرتنا ـ وقد نخرتها الغربة والبعد ـ بالاحتفاظ بوصف عام لوجوههم .

ـ نعم ، نعم يا صديقي ، منذ مدة طويلة وانا احاول تذكر بعض التفاصيل الصغيرة في وجهها فلا استطيع ، ان ما يهمني هو التفاصيل الصغيرة التي تغيب الآن وتغوص في أعماق ذاكرتي ، إنها الغربة ، تلك اللعنة التي انصبّت على رؤوسنا ولا نجد لها فكاكاً .

رجع بذهنه لليوم الأول الذي غادر به وطنه طلباً للرزق ، شعر في اللحظة الأولى التي يخرج فيها من الطائرة ويضع قدمه على سلمها وكأنه يقف وجهاً لوجه امام جيوش جرارة من مسني الغربة والعذاب اولها لحظة وقوفه على سلم الطائرة لحظتئذ ، وآخرها ضارب في أعماق المجهول ، اصطف في الطابور وتقدّم باتجاه رجل الأمن الذي يدقق تأشيرات الدخول ـ كان يحدث نفسه عن امكانية النهوض بمستوى الأسرة المادي وامنيته التي تلازمه منذ الصغر في بناء مستقبله ومستقبل اخوته الصغار بعد ان توفي والده ، سأله الضابط بلهجة لم يفهمها :

ـ « شي ويزا ؟»

ـ نعم ؟

ـ « انت اصمخ ؟ شي ويزا ؟ ».

لكزه احدهم وقال له :

ـ« بيقول لك معاك فيزا ؟ »

ـ« نعم ، نعم ، هيها ».

يمد يداً مرتجفة تحمل صورة « تأشيرة الدخول »، يدققها الضابط ، يقلبها ثم يقول :

ـ اسمك :

ـ «راشد ، راشد فهد ».

يمد الضابط يده ليلتقط الخاتم الرسمي فيما تستمر عيناه بالتدقيق، كان راشد يهبط ويرتفع بسرعة وكأنه أُصيب بلوثة (قلبية) اذا صح التعبير ، اكثر ما يخشاه ان يكتشف الضابط أن في تأشيرة دخوله شيئاً ناقصاً ، لكنه في نهاية الامر يهز رأسه ثم يرفع الخاتم ليهوي به على صفحة جواز سفره البيضاء، ثم يناوله الجواز ، ليلتقطه ويقرأ :

ـ« مطار ابو ظبي الدولي . دخول ١٤ / ١٢ / ١٩٧٥)

تنبه من شروده على صوت المذيع :

ـ سيداتي ، سادتي اخذت الطائرة تهبط تدريجياً نحو المطار . من اجل سلامتكم نرجو ربط احزمة الامان ووضع المقاعد في وضعها العمودي واغلاق الطاولات التي امامكم والامتناع عن التدخين . شكراً

نظر من النافذة الزجاجية ، الغيوم البيضاء تحت أجنحة الطائرة كأنها طيور النورس ، انه يذكر المرة الأولى التي رأى فيها طائر النورس ، كان ذلك قبل ثلاث سنوات على الشياطىء في « الشارقة ». اما المرة الثانية فكانت على شاطىء الرأس الاخضر في « ابو ظبي » خلال احدى نزهاته ، كان يتمنى لو يستطيع ان يشاهد عيني « النورس » عن كثب ، كثيرون قالوا له ان عينيه جميلتان ، حتى ودَّ لو استطاع ان يقارن بينهما وبين عيني حبيبته .

غاص قلبه الى اسفل أضلعه عندما لامست عجلات الطائرة أرض المطار ، حاول تجميع ما تبقّى في ذهنه عن المدينة التي عاش فيها طفولته وصباه ، لكنه لم يستطع ، وجد في زوايا ذاكرته بعض الصور المتقطّعة إلا أنه عجز عن توصيلها في عملية « مونتاج » تعطيه بعض ملامحها ، الشيء الوحيد الذي يذكره بكل تفاصيله هو المدرج الأثري الكبير ، كان هذا المدرج بأقبيته ودهاليزه مرتسماً في مخيلته بكل وضوح لقربه من بيتهم ، قيل له

ذات مرة إن المدينة اتسعت وأصبحت رائعة وانها تتمدّد بسرعة باتجاه الغرب تسترخي بغنج وخفر ، يتجدد شبابها تلقائياً مع كل صباح ، شوارعها نظيفة ، مرتبة ، أبنيتها أنيقة وشامخة شموخ جبالها ، تساءل بينه وبين نفسه ان كان « أبو عرسان » الراعي ما زال يسكن بخيمته السوداء في الجزء الغربي من المدينة ، وما اذا كان الصغار ما زالوا يتجمعون « ليتفرجوا » على الراعي وزوجته ، لكنه توصل بينه وبين نفسه لما يشبه اليقين ان مكان خيمة « ابو عرسان » لا بد وان يكون قد اصبح ملهىً ليلياً او « باراً » أو ، ربما . . ! كلا . . كلا ، هذا غير ممكن ، غطى وجهه بكفيه واجتاحه الم شديد ثم اخذ يهذي بما يشبه الهمس :

ـ مسكين انت يا راشد ، تحاول استجلاب وجه امك فلا تستطيع ، يطفو على صفحة ذاكرتك مهزوزاً ثم يغيب ويضيع منك كما تضيع من ذاكرتك تفاصيل الحي الذي عشت فيه سنين طويلة ، قتلك اللهاث وراء المادة والركض الحثيث وراء الثراء ، حقيبتك السوداء التي اشتريتها من السوق المركزية في « ابو ظبي » مليئة بالاوراق النقدية من فئة الألف درهم ، لكن كل هذه الثروة بمبالغها الطائلة أضعف من أن تستطيع استحضار وجه امك الى شاشة ذاكرتك ، امك التي استدعتك على عجل وأنت تعلم أنها لا تفعل ذلك إلا لأنها أصبحت قاب قوسين أو أدنى من قبرها ، حتى وجوه أصحابك الذين كنت تلعب معهم « الاستغمائة » في دهاليز المدرج الاثري ، ضاعت هي الأخرى منك ، تتجمّع ، تتجمّع ، ثم تتلاشى عندما تعجز ذاكرتك عن الامساك بتلابيبها . كل الصور والرسائل التي وردتك من أهلك واصدقائك عجزت كلها عن تنشيط ذاكرتك ، فالصور الخرساء اصبحت هي الأخرى احد جوانب الغربة والوحشة التي تعيش .

ضحك ضحكة مكتومة عندما تذكر كلمة قالها له احد زملائه :

ـ « انت يا راشد ، ذاكرتك مثل طنجرة « التيفال »، ما بيلزق فيها شيء على الاطلاق » .

لسعته السيجارة التي كانت تشتعل بين أصابعه أطفأها وأشعل أخرى ثم زفر زفرة حارّة وأغمض عينيه ليستطرد في هذيانه :

ـ هه . . . والآن يا راشد، زملاؤك مزروعون في « سويحان » تلهب اكبادهم سياط اشعة الشمس الحارة ينتظرونك لتعود لهم بعد اسبوع واحد، فاذا كنت لا تستطيع على مدى ساعتين ان تجمع في ذاكرتك صوراً تليق بمقام امك والحي الذي عشت فيه والمدينة التي احببتها فان اشهراً بكاملها لا تكفيك لتستعيد ذكرياتك عن بلدك واهلك واترابك واصحابك وتملأ رئتيك من رائحة امك وتستند برأسك الاشيب الى صدرها ، هذا إن لم تكن قد حُملت الى المقبرة .

يا راشد الذي أدمن الغربة ، أظنك تذكر أول مرة تطأ فيها قدمك رمال « سويحان » ذات صباح . يومٌ كامل لم تر فيه سوى غراب واحد ، كنت مزروعاً هناك كنبتة صبار تمد أذرعتها نحو الشمس . العطش يحرق جوفك والرمال الرمادية تلسع كعوب اقدامك عند الظهيرة ، أمضيت أعواماً وانت في مكانك تنتظر انتهاء عقدك ، حتى اذا انتهى أقنعت نفسك بجدوى تجديده !! واليوم تكتشف بنفسك كم هي المعادلة صعبة !! ذهبت صبياً ثم ها أنت تعود وانت على ابواب الكهولة وقد غطى الشيب فوديك وتناثر هنا وهناك في هامتك ، الا تحس بفداحة الثمن ؟ حصلت على الدرهم وفقدت الشباب ورونقه ! فأين المغنم ؟

أضيئت إشارة الامتناع عن التدخين ، لكنه كان في واد آخر ، مر به مضيف ، قال له بحدة :

ـ « اطفىء سيجارتك مش شايف الإشارة ؟ » .

كانت الأوامر صارمة لا مجال لمناقشتها ، أطفأ سيجارته ، أغلق المنفضة ، مدّ يده ليتأكد من إحكام ربط حزام الامان ، تذكر جدته رحمها الله ، قال لها ذات يوم وهو يداعبها بعد ان عرضت عليه الزواج من ابنة عمه « هند » :

ـ « يا جدتي شو جابر الفلتان يربط حاله ؟» .

ـ « اخس عليك هو الزواج سجن ؟ »

لا يعلم لمَ استرجع هذا الحوار الآن بعد هذه المدة الطويلة لكنه بكل تأكيد يفكر جدياً هذه الايام بالزواج بعد ان بلغ الخامسة والثلاثين ولعل تفكيره (بهند) وكلمات جدته بعد هذه المدة الطويلة اكبر دليل على أسفه على فرصته التي اضاعها من اجل جمع النقود .

* * *

فتحت ابواب الطائرة ، تدافع الركاب باتجاه ابواب الدخول ، شابٌ وسيم أنيق يقف لدى الباب أمرهم بالاصطفاف واحداً تلو الآخر ، لكن « راشداً » الذي شاهد أخاه « رشيداً » لم يمتثل للأمر واندفع يؤشر لشقيقه الذي يقف بين صفوف المستقبلين . متجاوزاً بعض المسافرين ، تأفّف بعضهم ووجد له البعض الآخر عذراً فيما صنع ، لكن الوحيد الذي لم يغفر هذا الخطأ هو الشاب الذي كان يقف على البوابة الرئيسية ، لحق « براشد » تناوله من قميصه ثم قال له :

ـ « انت انسان ولّا حيوان ؟ ليش ما تصف عالدور ؟ » .

ـ «هه ، هه ؟ اخوي «رشيد» صار لي عشر سنين ما شفته » .

ثم اندفع مرة اخرى باتجاه اخيه ، لحق به الشاب مرة اخرى، دفعه الى آخر الصف وعندما احتج على هذه المعاملة صفعه صفعة شديدة على وجهه كادت ان تفقده صوابه ، كانت درجة الحرارة منخفضة ، ومع ذلك فان وجه « راشد » اصبح كالتنور تماماً له وهج يحس كأنه يتطاير من عينيه .

* * *

تذكر زملاءه في « سويحان » تذكر حرارة الشمس هناك وجدها اقل حرارة من صدغه الأيسر ، لحظتئذ كان قد وصل الى رجل الأمن حاملاً جواز سفره، قال له ودمعة صغيرة تجول في عينه اليمنى :

ـ لا تختم جواز سفري يا سيدي ،سأعود. على متن أول طائرة فقد نسيت شيئاً مهماً .